

كِتَابُ

أَسْرَارُ الْبِلَاغَةِ

تأليف الشيخ الإمام أبي بكر، عبد الفاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي

تفقدّه الله يفقرنا

المتوفى سنة ٤٧١هـ = أوسنة ٤٧٤هـ

قَرَأَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

أبو فهر

محمود محمد شاكر

مِنَ النَّاسِ مَنْ لَفْظُهُ لَوْلَوْ يُبَادِرُهُ اللَّقْطُ إِذَا يُلْفَظُ
وَبَعْضُهُمْ قَوْلُهُ كَالْحَصَا يُتَالُ فَيُلْفَى وَلَا يُحْفَظُ
شيخ المصنف

الناشر دارالمدني بمكة

تليفون : ٦٧٠٠٧٨٨ فاكس : ٦٧١٣٤٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِزْ

الحمد لله وحده لا شريك له ، حمداً توجبه سوابغ نعيمه ، ولنعمة واحدة لا يؤفها بعض حقها حمد الحامدين ولا شكر الشاكرين آناء الليل وأطراف النهار ، دهر الداهرين وأبد الآبدين ، وصلى الله على نبينا محمد رسول الله المبلغ عن ربه ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، فأخرجنا بها من الظلمات إلى النور ، وأنقذنا بها من نار جهنم ، ما اتبعنا هدى القرآن العظيم ، ولزمتنا سنة رسوله الأمين ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً ، وصلى الله على أبويه الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل ، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » ، أمر من الله ربنا لا يزيغ عنه إلا هالك .

* * *

وبعد ، فقد فرغت آنفاً من قراءة « كتاب دلائل الإعجاز » للإمام المتفرد عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني ، وهذا كتابه الثاني : « كتاب أسرار البلاغة » ، قرأته أيضاً وعلقت عليه ، فهما أصلاً جليلاً ، أسساً قواعد النظر في علم بلاغة الألسنة عامة ، وبلاغة اللسان العربي المبين خاصة . ثم خلف من بعد عبدالقاهر أئمة من الخلف اتبعوه وزادوا عليه ، وأرادوا أن يقعدوا قواعد لعلم البلاغة ، فشقوا لأنفسهم في زمانهم ، ثم لنا من بعدهم ، طريقاً جديداً يلاق طريقه من وجه ، ويخالفه من وجه آخر . كان ذلك اجتهداً منهم أحسنوا فيه غاية الإحسان ، وأساءوا بعض الإساءة ،

مقدمة

ولكن ظلَّ عبد القاهر عندهم جميعاً إماماً مجتهداً مبرزاً سبق إلى ما لم يخطئه أحد قبله ، واستدركوا عليه بعض ما ظنُّوا أنه قد أغفله في هذين الكتابين الجليلين . نبيد أن ما كتبه عبد القاهر سوف يبقى بإذن الله نبراساً وسراجاً منيراً لكل من يسر له الله الإخلاص والهمة والسعى المبصر في طلب الكشف عن بلاغة الألسنة البشرية عامة ، واللسان العربي المبين خاصة ، وسيبقى بمشيئة الله ما كتبه الأئمة من الخلف الذين جاءوا من بعده ، دليلاً هادياً يهّد الطريق لمن أراد من أهل زمننا ، ومن يجيء بعده ، أن يهجر الثثرة الفاشية في زماننا وزمانهم ، مهاجراً إلى الصديق المؤدّي إلى بلوغ الحق ، حتى تستتبّ الخطى على الطريق المستقيم . وكل من دبّ على الدرب وصل ، بتوفيق من الله وعون ، والجِدُّ خَلِيقَةٌ تُفْضِي إلى مُسْتَقَرِّ السعادة في الدنيا والآخرة .

* * *

كان الفضلُ الأوّل والأكبر للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ، فهو الذى وفقه الله فنشر « كتاب أسرار البلاغة » في زماننا ، فطبع النسخة الأولى منه سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) بمطبعة الترقى ، ثم طبع الطبعة الثانية منه سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) في «مطبعة المنار» التى كان قد أنشأها سنة ١٣٢١هـ ، ثم أعاد طبعها مرّاتٍ بعد ذلك . ثم كان له الفضل الأول أيضاً في نشر الكتاب الثانى «كتاب دلائل الإعجاز» سنة ١٣٢١هـ وهى الطبعة التى اعتمدت إثبات أرقامها فى نشرى «كتاب دلائل الإعجاز» كما ذكرت ذلك فى مقدّمته .

وقد قصّ الشيخ رشيد قصّة «كتاب أسرار البلاغة» فى مقدمة الطبعة الثانية التى وقفت عليها ، وسأنشرها كاملة فى آخر هذه المقدمة . وذكر أنّه طلب مخطوطة «كتاب أسرار البلاغة» من صديقه عبد القادر المغربى ، وكانت فى أحد بيوت العلم فى طرابلس الشام . وقال إنه علم أن نسخة

مقدمة

أخرى من الكتاب في إحدى دُور الكتب السلطانية في دار السلطنة السنية ، فندب بعض طلاب العلم لمقابلة نسخته الشامية على هذه النسخة. ونحن لا نعلم شيئاً عن هذه النسخة الشامية ، ولا نعرف تاريخ كتابتها ؛ ولا نعرف أيضاً شيئاً عن النسخة التي كانت في دار السلطنة العثمانية ، وإن كنت أظن أنها هي النسخة التي سأشير إليها فيما بعد ، والله أعلم .

وقد قرأت «كتاب أسرار البلاغة» في صَدْر شباني ، في الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤ ، قرأته مرتين ، ولكن لم يشغلني يومئذ أمر المخطوطات التي اعتمد عليها الشيخ رحمه الله ، ومضت سنوات طوالاً بعد ذلك ، ثم عُدْتُ إليه فقرأته بعد أن استتبَّ لي الطريق ، وعرفتُ ما لم أكن أعرفه ، فشغلني أمر المخطوطات ، فتفصَّيْتُ أمرَ مخطوطاته ، حتى عرفتُ أن في مكتبة خسرو باشا بدار الخلافة في القسطنطينية ، نسخة عتيقة ، كان الفراغ من كتابتها سنة ٦٦٠هـ بدمشق المحروسة. فهي إذن نسخة عتيقة ، بينها وبين مؤلفها عبدالقاهر ، نحو من مئة وتسع وثمانين سنة ، ولكن ليس فيها نصٌّ على أنه نقلها عن نسخة المؤلف ، أو عن نسخة بعدها نسخها ناسخٌ عن نسخة المؤلف . دلَّني على هذه النسخة صديقي الأستاذ رشاد عبدالمطلب ، وتفضَّل عليَّ رحمه الله بصورة من هذه المخطوطة في سنة ١٩٥٣م أو قبلها فيما أظن.

وبعد قليل ، في سنة ١٩٥٤م . وقفت على نسخة مطبوعة من «أسرار البلاغة» ، نشرها المستشرق «ريتير» ، اعتمد فيها على هذه النسخة نفسها ، مع ثلاث نسخ أُخر ، كانت إحداها في مكتبة فيض الله ، تَمَّت كتابتها سنة ٩٤٧هـ ، والأخرى في المكتبة الحميدية ، تَمَّت كتابتها سنة ٩٤٣هـ ، والثالثة نسخة في مكتبة مُراد مُلاً غير مؤرخة ، وذكر أن هذه النسخ الثلاث تكاد تتفق في قراءتها مطابقةً للنسخة الأولى المكتوبة سنة ٦٦٠هـ ، ولم يجد دليلاً قاطعاً على أنها منقولة منها . ثم استعان أيضاً بالنسخة التي طبعها الشيخ رشيد رضا رحمه الله .

مقدمة

ولما قرأت النسخة التى طبعها « ريتير » ، وذكر فيها فروق النسخ ، وجدت أن هذه النسخ الثلاث التى استعان بها ، فى قراءة النسخة العتيقة المكتوبة سنة ٦٦٠ هـ ، إنما هى نُسخٌ لا قيمة لها تذكر . وبقيت النسخة العتيقة ونسخة الشيخ رشيد رضا ، هما أفضل ما بأيدينا من « كتاب أسرار البلاغة » .

ولما كانت عندى فى ذلك الوقت نسخة من « كتاب دلائل الإعجاز » ، وهى نسخة مكتبة «حسين جلبى» بتركية ، ثَمَّت كتابتها فى أواسط شهر ربيع الأول سنة ثمان وستين وخمسة . (٥٦٨ هـ) ، أى بعد وفاة عبدالقاهر بنحو سبع وتسعين سنة ، وتبين لى أنها منقولة من خط عبدالقاهر نفسه ، وعلى هوامشها تعليقات بخط كاتبها ، تبينت فيما بعد أنها تعليقات عبدالقاهر نفسه على نسخته (انظر مقدمة «دلائل الإعجاز» ص : ز ، ح) ، ظلت أُوْمَل فى الحين بعد الحين ، أن أقف على نسخة من « كتاب أسرار البلاغة » ثُمَّاثلها فى نفَاسِتها ، وفى قرب عهدها من وفاة عبدالقاهر ، وتمنيت أن تكون منقولة من خط عبدالقاهر ، وعليها تعليقاته . ومضى الزمن الطويل فى الأمانى ، وفى البحث والسؤال عن مثل هذه النسخة ، حتى عزمت فى سنة ١٤٠٣ هـ (سنة ١٩٨٣ م) على طبع «كتاب دلائل الإعجاز» ، فلما فرغت منه ، أكثرْتُ السؤال والبحث عن نسخة عتيقة من «كتاب أسرار البلاغة» ، فلم أجد لها ذكراً فى فهارس المخطوطات ، ولا عند أحد من أهل المعرفة الوثيقة بالمخطوطات ، فلما يئست أن أجدها ، عزمت على الاعتماد على النسخة الشامية العتيقة المكتوبة فى سنة ٦٦٠ هـ ، وعلى نسخة الشيخ رشيد رحمه الله المطبوعة سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) ، وعلى نسخة « ريتير » المطبوعة سنة ١٩٥٤ م .

مقدمة

وهذه النسخة العتيقة المحفوظة الآن بمكتبة خسرو باشا بالقسطنطينية تحت رقم : ٦٥٤، فرغ كاتبها منها ، كما ذكر في آخرها : «يوم الثلاثاء ، بعد العصر ، السابع عشر من جمادى الآخرة ، من سنة ستين وستمئة ، بجبل الصالحية من دمشق المحروسة » ، وعدد أوراقها ١٤٥ ورقة ، ورقمت أنا صفحاتها من ١-٢٨٩ صفحة. وأثبت على هامش هذه المطبوعة أرقام الصفحات كما قيّدتها في نسختي .

وقد كُتِبَ في رأس الورقة الثانية ، بخط سقيم : « ناقص كُرّاس » وفوقه بيانٌ بخطّ فارسيّ جميل : «من خطّ الخفاجي ، شارح الشفاء العياضي ، وشارح البيضاوي» ، وأنا أظنّ ظناً أنه من خطّ بعض تلامذة الشهاب الخفاجي ، ومعنى هذا أن هذه النسخة قد كانت من كتب الشهاب الخفاجي ، وكانت له مكتبة عظيمة ، وأظنّ ظناً أقرب إلى الترجيح أنها آلت بعد وفاة الشهاب ، إلى تلميذه الذي لازمه منذ سنة ١٠٥٠هـ ، لما دخل البغدادى مصر ، إلى أن مات الشهاب سنة ١٠٦٩هـ . وقد تملك البغدادى أكثر كتب الشهاب ، كما ذكرت ذلك في هامش ص ٤٠ ، تعليق : ١

والنقص الواقع في هذه النسخة ، هو نقص الكراسة الثانية ، وعدد أوراق الكراسة عشرون ورقة . ويبدأ هذا النقص ، كما أشرت إليه في تعليقي ، من ص : ٥٩ ، تعليق : ٢ - إلى ص : ١١٢ ، تعليق : ٣ . ومن أجل هذا النقص ، فيما أظنّ ، لم يقرأها الشهاب الخفاجي ولا البغدادى ، ولا علّقوا عليها ، بل الذى علّق عليها في مواضع قليلة ، هو الذى كتب بخطه الفارسي : «من خطّ الخفاجي» ، كما أشرت إليه آنفاً. ويُتمُّ نقص هذه الكراسة ، ما في نسخة الشيخ رشيد ، ونسخة ريتز عن نسخه الثلاث الآخر .

أما النسخة المطبوعة من «كتاب أسرار البلاغة» (الطبعة الثانية كما ذكرت آنفاً) ، والتي نشرها الشيخ رشيد رضا رحمه الله ، فإنه أشار في صفحة مستقلة بعد مقدمته ، تحت عنوان : (تنبيهات لقراء الطبعة الثانية) إلى أنه أدرج فيها تصحيح الشيخ محمد عبده عن قراءة الكتاب ، مع الاستعانة بإمام اللغة في عصره الشيخ محمد محمود الشنقيطي . وقد أوقع في قلبي الرّية من هذه التصحيحات ، ما أعلمه من تسرع الشيخ عبده وطغيانه في التصحيح بغير دليل ، اعتماداً على ذكائه ، وحبه الظهور على أقرانه . ولكن سكّن من ريتي استعانة رشيد رضا بالشيخ الشنقيطي ، لما أعرفه عنه من الثبّت ، وحسن بصره بلغة القوم في عصورهم المختلفة. ولما قابلتها بالمخطوطة العتيقة المكتوبة سنة ٦٦٠ ، لم أجد اختلافاً كثيراً يقدح في هذه المطبوعة .

وأما مطبوعة المستشرق «ريتر» ، فقد رأيت الرجل قد بذل غاية جهده مستشرق يتلّس طريقه في هذه اللغة ، ولكنه أثقلها بفروق النسخ المخطوطة التي ذكرتها آنفاً بلا فائدة تُذكر ، مع ضعف النسخ المخطوطة الثلاث ، كما ذكرت.

وأثقلها أيضاً بمخالفته عادة المستشرقين في طبع الكتب العربية ، بأن اتبع طريق ضعاف «المحققين» المُحدّثين في زماننا ، بالاستكثار من ذكر مراجع كثيرة لأبيات الشعر التي استشهد بها عبدالقاهر ، في كتب ألفها البلاغيون الذين جاءوا من بعده ، لأنهم لم يأخذوا هذه الشواهد إلا من كتاب عبدالقاهر . وعندى أن كتاب عبدالقاهر ، مادام هو الأصل ، ينبغي أن يخلو من ذكر هذه المراجع المتأخرة ، ويبقى هو المرجع والأصل لما في هذه الكتب التي جاءت بعده .

وأيضاً فإنه التزم في أكثر أبيات الشعر المفردة في كتاب عبدالقاهر ، أن يذكر القصيدة التي أخذ منها البيث ، وفي من قيلت القصيدة ، وثرثرة

مقدمة

بعد ذلك كثيرة ، لا يستفيد منها قارئ هذا الكتاب فائدةً تُذكر ، فأتبع «ريتر» أيضًا طريقَ ضعاف «المحققين» منّا ، الذين يتكثرون بمالا ينفع الكتاب ، ولا يهْدِي القارئ إلى شيءٍ ينتفع به في قراءة ما بين يديه من الكتاب.

ومع ذلك ، فجهّد «ريتر» جهّد مشكوراً في نشر هذا الكتاب الجليل ، مع ما في طبعته من عيوب أُخر ، أشرتُ إليها أحياناً في تعليقي على الكتاب .

* * *

وكنْتُ قد عزمْتُ على أن أنشر مقدّمة «ريتر» التي كتبها ، في مقدّمتي هذه ، فالتمسْتُ من صديقي الدكتور عبدالمنعم تليمة ترجمتها ، ففعل ذلك متفضلاً عليّ ، ولكنه قال لي : «لا تفعل» ، فإنها لا تضيف شيئاً جديداً ينتفع به القارئ العربيّ ، وصدّق ، فشكرته وأتبعْتُ نصيحته ، وذهبَ جهّده في الترجمة هدراً .

أمّا مقدّمة الشيخ رشيد رضا لمطبوعته النفيسة ، والذي كان له فضلُ السبق إلى نشرها ، فسأثبتهَا لك ، قال رحمه الله ، بعد الثناء على الله والصلاة على نبيه . وهذا نصّها :^(١)

* * *

الإنسان يمتاز بالعلم ، وإنما العلم بالتعلم ، والتعلم باللغة ، واللغات تتفاضل في حقيقتها وجوهرها بالبيان ، وهو تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير . وفي صورتها وأجراسِ كَلِمِها بعدوبة النطق ، وسهولة اللفظ والإلقاء ، والخِفة على

(١) للشيخ رشيد تعليقة واحدة ذكرت اسمه بعدها ، أمّا باقي التعليقات فهي لكاتب هذه

مقدمة

السمع . وإن للغة العربية من هذه المميزات الميزان الراجح ، والجواز القارح ، يعرف ذلك من أخذها بحق ، وجرى فيها على عرق ، فكان من مفرداتها على علم ، وضرب في أساليبها بسهم . ومن آية ذلك لغير العارف ، أن أولئك الشراذم والأوزاع من أهلها قد حملوها إلى الأمم التي كان للغاتها في العلوم قَدَمٌ ، ولم يحملوهم عليها بالإلزام ، ولا بالتعليم العام . وكان من أمرها مع هذا أن نسخت بطبيعتها لغة المصريين من مصرهم ، والرومانيين من شامهم ، واستعلت على الفارسية الغدبة في مهدها وموطنها ، وامتد شعاعها إلى الأندلس في غربي أوربة بعد ماطاف ساحل أفريقية الشمالى ، وإلى جدار الصين من الشرق — كل ذلك في زمن قريب لم يعرف في التاريخ مثله للغة أخرى من لغات الفاتحين الذين يتخذون كل الوسائل لنشر لغاتهم ، وتعميمها بالتعليم العام ، وضروب الترغيب والترهيب .

كانت لغة أميين وثنيين جاهليين ، فظهر فيها أكمل الأديان ، فكانت له أكمل مظهر ، وتحلّى لها العلم فكانت له خير مجلّى . وصارت بذلك لغة الدين والشرعة ، وعلوم العقل والطبيعة ، ولكن عدت على أهلها عواد كونية ، وطرات عليهم أمراض اجتماعية ، فضعف فيهم كل مقوم من مقومات الأمم الحية . ومن تلك المقومات الحقيقية اللغة ، فقد فسدت ملكتها في الألسنة ، والتوى طريق تعليمها في المدارس ، حتى كادت تكون من اللغات الدوارس .

ظهر ضعف اللغة في القرن الخامس ، وكانت في ريعان شبابها ، وأوج عزّها وشرفها ، وكان أول مرض ألمّ بها الوقوف عند ظواهر قوانين النحو ، ومدلول الألفاظ المفردة ، والجمل المركبة ، والانصراف عن معاني الأساليب ، ومغازى التركيب ، وعدم الاحتفال بتصريف القول ومناحيه ، وضروب التجوز والكناية فيه . وهذا ما بعث عزيمة الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، إمام علوم اللغة في عصره ، إلى تدوين علم البلاغة ، ووضع

مقدمة

قوانين للمعاني والبيان ، كما وضعت قوانين النحو عند ظهور الخطأ في الإعراب . فوضع هذا الكتاب في البيان ، ومن فاتحته يتنسم القارئ أن دولة الألفاظ كانت قد تحكمت في عصره ، واستبدت على المعاني ، وأنه يحاول بكتابه تأييد المعاني ونصرها ، وتعزيز جانبها وشد أسرها .

كتب قبل عبدالقاهر في مسائل من البيان بعض البلغاء ، كالجاحظ وابن دُرَيْد وقدامة الكاتب ، ولكنهم لم يبلغوا فيما بنوه أن جعلوه فناً مرفوعاً القواعد مفتوح الأبواب ، كما فعل عبدالقاهر من بعدهم ، فهو واضح علم البلاغة كما صرح به بعض علمائها ، وإن لم يذكر له هذه المنقبة المؤرخون الذين رأينا ترجمته في كتبهم ، حتى إن ابن خلدون الذي تصدى دون القوم للإلمام بتاريخ الفنون أهمل ذكره ، وزعم أن الذي هذب الفن بعد أولئك الذين كتبوا في مسائل متفرقة منه هو السكاكي ، وما كان السكاكي إلا عيالاً على عبدالقاهر ، ثلاً تلوّه ، وأخذ عنه ، مع المخالفة في شيء من الترتيب والتبويب ، ولكنه لم يسلم من التكلف في بعض عبارته ، والتعقيد في بعض منازعه ، فإذا جاز لنا أن نقول : إنه فاق لتأخره بالترتيب المعلوم ، وبما حرّره من الحدود والرسوم ، فإننا لا ننسى من فضل المتقدم سلامة عبارته ، وصفاء ديباجته ، وغوصه على أسرار الكلام ، ووضع دُررها في أبدع نظام .

كان السكاكي وسطاً بين عبدالقاهر الذي جمع في البلاغة بين العلم والعمل وأضرابه من البلغاء العاملين ،^(١) وبين المتكلفين من المتأخرين الذين سلكوا بالبيان مسلك العلوم النظرية ، وفسروا اصطلاحاته كما يفسرون

(١) « السكاكي » : هو « سراج الدين ، أبويعقوب ، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الحُوَازمي » ، [٥٥٤-٦٢٦ هـ] . ألف كتابه « مفتاح العلوم » ، وهو مطبوع ، جمع فيه سبعة علوم ، ثلاثة منها في علم البلاغة . ولخص كلامه فيه العلامة الخطيب القزويني . « محمد ابن عبدالرحمن بن عمر بن أحمد العنجلي ، أبوالمعالى جلال الدين قاضي القضاة الشافعي » ، [٦٦٦ - ٧٣٩ هـ] ، وسمى تلخيصه : « تلخيص المفتاح » ، وهو مطبوع .

المفردات اللغوية ، ثم تنافسوا في الاختصار والإيجاز ، حتى صارت كتب البيان أشبه بالمعجمات والألغاز ، فضاعت حدوده بتلك الحدود ، ودرست رسومه بهاتيك الرسوم . وكان من أثر فساد ذوق اللغة اختيار هذه الكتب التي ملكت العُجْمَة عليها أمرها ، على الكتب التي تهديك إلى العلم الصحيح بمعانيها ، وتُهدِي إليك الذوق السليم بأساليبها ومناحيها ، فكادت كتب عبدالقاهر تُمَحَى وتُنْسَخ ، وصارت « حواشي السَّعد » تطبع وتُنسخ ،^(١) وهذا هو حظ العلم النافع إذا أُلْقِيَ إلى الأمة في طور التَّدَلِّي والضعف ، فمثل عبدالقاهر في أسرار بلاغته ودلائل إعجازه ، كمثل ابن خلدون في مقدّمته ، والسلطان سليمان العثماني في قوانينه .

رُبَّ غداء طيب نافع عافته النفس لمرض أَلَمَّ بها ، حتى إذا نقهت أو أُيِّلَت اشتتهته وطلبتّه . وهذا هو مثلنا أمس واليوم ، فقد كنّا متفقين على أخذ العلم من كتب علمائنا المتأخرين ، كما يختار المريض الغذاء الضارّ ، فظهر فينا هُذاة مرشدون يسعون في إحياء ما أماته الجهل من آثار سلفنا ومصنفات أئمتنا . ويُدُلُّوننا على العلم الحى الذى تَفَجَّر من ينابيع النفوس الحية ، لنفرق بينه وبين الرسوم الميتة التي سماها الجهل علماً .

ولما هاجرت إلى مصر في سنة ١٣١٥ لإنشاء (المنار) الإسلامى ، ألفت إمام النهضة الإسلامية الحديثة الأستاذ الحكيم الشيخ محمداً عبده رئيس جمعية إحياء العلوم العربية ومفتى الديار المصرية اليوم ، مشغلاً في بعض وقته بتصحيح كتاب دلائل الإعجاز ، للإمام عبدالقاهر الجرجاني . وقد استحضر نُسخه من المدينة المنورة ومن بغداد ليُقابِلها على النسخة التي عنده ، فسألته عن كتاب «أسرار البلاغة» للإمام المذكور فقال : إنه لا يوجد في هذه الديار .

(١) « السعد » هو : « سعد الدين التفتازانى » ، « مسعود بن عمر بن عبدالله » [٧١٢ -

٧٩١هـ] ، انتهت إليه معرفة علوم البلاغة في المشرق . وله حاشيتان على «تلخيص المفتاح» للخطيب القزوينى ، « المطول » و« المختصر » ، وكلاهما مطبوع .

فأخبرته بأن في أحد بيوت العلم في طرابلس الشام نسخة منه ، فحسنى على استحضارها وطبعها . فطلبتها من صديقي الحميم العالم الأديب عبدالقادر أفندي المغربي ، وهي مما تركه له والده ، فلبى الطلب . وعلمنا أن نسخة أخرى من الكتاب في إحدى دور الكتب السلطانية في دار السلطنة السنية ، فتدبنا بعض طلاب العلم الأذكياء لمقابلة نسختنا بتلك النسخة . فخرج لنا من مجموعهما نسخة صحيحة شرعنا في طبعها ، ووضعنا في ذيل المطبوع شرحاً لطيفاً ضبطنا فيه الكلمات الغريبة ، وفسرنا منها ومن جمل الكتاب ما رأيناه يستحق التفسير . وأشرنا إلى الخلاف بين النسختين ، فيما يحتمل صحة الاثنتين .

أما كون عبدالقاهر هو واضع الفن ومؤسسه . فقد صرح به غير واحد من العلماء الأعلام ، أجلهم قدراً ، وأرفعهم ذكراً ، أمير المؤمنين ، مخبى علوم اللغة والدين ، السيد يحيى بن حمزة الحسينى صاحب كتاب «الطراز ، في علوم حقائق الإعجاز» ،^(١) فقد قال في فاتحة كتابه هذا ، وهو من أحسن ما كتب في البلاغة بعد القاهر ، ما نصه :

« وأول من أسس من هذا الفن قواعده وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب أفانيته ، الشيخ العالم التحرير عَلمَ المحققين عبدالقاهر الجرجاني ، فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد ، وهذ من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح أزاهره من أكامها ، وفتح أزراره بعد استغلاقتها واستبهاها ، فجراه الله عن الإسلام أفضل الجزاء ، وجعل نصيبه من ثوابه أوفر النصيب والأجزاء ، وله من المصنفات فيه كتابان ، أحدهما لقيه «بدلائل الإعجاز» والآخر لقيه «بأسرار البلاغة» ، ولم أقف على شيء منهما ، مع شغفى بحبهما وشدة إعجابى بهما . إلا ما نقله العلماء في تعاليقهم منهما » .

(١) من أكابر أئمة الزيدية باليمن ومن أكابر علمائه (٦٩٦-٧٤٥هـ) .

مقدمة

وأما مكانة هذا الكتاب وبيان ما يمتاز به على كتب البيان ، فحسبى من بيانها عرضه على الأنظار مع التنبيه على مسألتين نافعتين :

إحدهما : أن العلم هو صورة المعلوم مأخوذة عنه بواسطة الإدراك ، كما تؤخذ الصورة الشمسية بالآلة المعروفة ، فإن كان المعنى المنتزع من الجزئيات قانونًا كليًا يرشد إليها ، فهو القاعدة ، وإن كان صورة تناسبها وتقربها من الفهم ، فهو المثل .

والثانية : أن القاعدة الكلية هي صورة إجمالية للمعلومات الجزئية ، والأمثلة والشواهد صورٌ تفصيلية لها .

والتعليم النافع إنما يكون بقرن الصور المفصلة بالصورة المجملة ، إذ بالتفصيل تعرف المسائل ، وبالإجمال تحفظ في العقل . وبهذه الطريقة يجمع بين العلم والعمل الذى يثبت به العلم ، وهى طريقة عبدالقاهر فى كتابه هذا وكتاب « دلائل الإعجاز » . على أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى كله من آيات البلاغة ، فهو يعطيك علمها بمعانيه ، وعملها بمبانيه ، وبهذه المميزات يفضل هذا الكتاب جميع ما بين أيدينا من كتب الفن ، لأنها إنما تقتصر على سرد القواعد والأحكام بعبارات اصطلاحية ، تنكرها بلاغة الأساليب العربية ، ولا تذكر من الشواهد والأمثلة إلا القليل النادر ، الذى أدلى به السابق إلى اللاحق والأول إلى الآخر .

لهذا بادر الأستاذ الإمام ، مفتى الديار المصرية فى هذه الأعوام ، إلى تدريس الكتاب فى الأزهر الشريف عقيب شروعا فى طبعه ، فأقبل على حضور درسه مع أذكىاء الطلاب كثيرون من العلماء والمدرسين وأساتذة المدارس الأميرية . وقد قال أحد فضلاء هؤلاء الأستاذين ،^(١) بعد حضور

(١) هو المرحوم الشيخ محمد مهدى بك مدرس البلاغة وآداب اللغة العربية فى المدارس العليا :

دار العلوم ، ومدرسة القضاء الشرعى ، والجامعة المصرية (رشيد رضا) .

الدرس الأول : «إننا قد اكتشفنا في هذه الليلة معنى علم البيان» .
وقد ظهر للأستاذ في غضون التدريس والمطالعة أغلاطاً في الكتاب ،
بعضها من الطبع ، وبعضها من تحريف النساخ في الأصل ، وأغلاط أخرى
في التعليقات ، فأحصيناها كلها من نسخته ، ووضعنا لها جدولاً في آخر
الكتاب إتماماً للقائده .

ومما يجب التنبيه عليه أن بعض تراجم فصول الكتاب هي من وضعنا ،
فإن المصنف رحمه الله تعالى كان يكتفى في كثير منها بكلمة (فصل)
ونحنم هذه المقدمة بملخص ترجمة المصنف رحمه الله تعالى فنقول :
اتفق المؤرخون على الثناء عليه بالعلم والدين ، ولقبوه بالإمام واشتهر
بالنحوي ، من قبل أن يضع علم البلاغة . على أنه كان متكلماً وفقهياً أيضاً .

قال الحافظ الذهبي في تاريخه «دول الإسلام» : «وفي سنة إحدى
وسبعين وأربعمائة مات إمام النحاة أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني
صاحب التصانيف» .^(١)

وقال تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى :^(٢) «عبد القاهر
ابن عبد الرحمن الشيخ الكبير أبو بكر الجرجاني النحوي المتكلم على مذهب
الأشعري ، الفقيه على مذهب الشافعي ، أخذ النحو بجرجان عن أبي الحسين
محمد بن الحسين الفارسي ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي ،^(٣) وصار
الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات ، مع الدين المتين ، والورع
والسكون .

(١) «دول الإسلام» للذهبي ، طبعة الهند

(٢) نشرها محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، وترجمته رقم : ٤٦٧ ، ج ٥ : ١٤٩ .

(٣) كان فيما نشره الشيخ رشيد : «محمد بن الحسن» ، وهو خطأ ، والصواب : «محمد

ابن الحسين بن محمد بن عبد الوارث» ، وترجمته في إنباه الرواة ١ : ١١٦

«قال السِّلَفِيُّ : كان ورعًا قانعًا ، دخل عليه لصٌّ وهو في الصلاة ، فأخذ ما وجد وعبد القاهر ينظر ولم يقطع صلاته» .

ثم قال السبكي : ومن مصنفاته «كتاب المغنى على شرح الإيضاح» في نحو ثلاثين مجلدًا ، و«كتاب المقتصد»^(١) في شرح الإيضاح أيضًا ، ثلاث مجلدات ، و«كتاب إمعاز القرآن الصغير» ، و«العوامل المائة» و«المفتاح» و«شرح الفاتحة» و«العمدة في التصريف» ، وكتاب «الجمال» المختصر المشهور .

وفي كتاب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» نحو من ذلك ،^(٢) وزاد في ذكر المصنفات «شرح كتاب الجمل» . وذكر أن عليّ بن أبي زيد الفصيحى أخذ عنه .

وذكروا له شعراً : فمنه ما أورده ابن شاکر الکتبی فی «فوات الوفيات» :^(٣)

لا تأمن النَفْثَةَ من شاعرٍ مادام حَيًّا سالماً ناطقًا
فإنَّ مَنْ يَمْدَحُكُمْ كاذبًا يُحْسِنُ أن يهجوَكُمْ صادقًا

واتَّفَقوا على أنه توفي سنة ٤٧١ ، وقال السبكي : وقيل ٤٧٤ ، رحمه الله تعالى

محمد رشيد رضا
منشئ مجلة (المنار)

* * *

(١) كان فيما كتبه الشيخ : «المقصد» ، وهو خطأ ، وقد طبع الكتاب في بغداد في جُرَّأَيْنِ

سنة ١٩٨٢

(٢) في وفيات سنة ٤٧١ هـ

(٣) في ترجمته في «فوات الوفيات»

مقدمة

ورحم الله الشيخ رشيد رضا .

فقد كنتُ في صدر شبّابى ، وفي إبان طلّبي العلم ، حين قرأتُ مقدمة الشيخ رشيد لأسرار البلاغة ، ورأيت ما فيها من الغمز في عمل السكاكيتي ، ثم الطعن الشديد في كتب السعد التفتازاني وحواشيه على « تلخيص المفتاح ، للخطيب القزويني ، حتى سماها «الرسوم الميّنة التي سماها الجهل علماً» ، أو كما قال = فراعني يومئذ ما يقوله الشيخ في السعد التفتازاني ، الذي أثنى عليه كل من ترجم له ، حتى قالوا : «انتهت إليه علوم البلاغة في المشرق» ، ولكنني حملتُ ذلك على أنه أراد الرواج لكتابه الذي طبعه ، وهو «أسرار البلاغة» للإمام الجرجاني ، وظننتُ أنها زلة تُعْتَفَرُ للشيخ رحمه الله .

ومع ذلك ، فقد دعاني ما كتبه عن كُتُب «السعد» أن أنظر فيها وأقرأها ، فوجدتُ أنه قد ظلم «السعد» ظُلماً بيناً ، لأنَّ الرجل كان يكتب لأهل زمانه ، وما أُلْفوا من العبارة عن علمهم ، وأنَّ فيه من التَّنَظَرِ الدقيق في البلاغة ، قدرًا لا يستهينُ به أحدٌ يحمل في نفسه قدرًا من الإنصاف .

ومضت سنون ، حتى دخلتُ الجامعة ، وسمعت ما يقوله الدكتور طه في كتابه «في الشعر الجاهلي» الذي رجَّح حياتي رجًا شديدًا زلزل نفسي ، فعزمتُ على أن أعيد النظر في كُتُب السلف المتقدمين ، ويومئذ عرفتُ «كتاب التلخيص في علوم البلاغة» ، الذي شرحه الأستاذ الجليل «عبدالرحمن البرقوق» ، فرأيت في مقدمته ، يغمزُ في عمل السكاكيتي ، ثم يقول أيضًا في الحواشي على «تلخيص المفتاح» للخطيب القزويني مثل ما قال الشيخ رشيد ، يقول البرقوق :

«ظهر حوائلي ذلك قومٌ درجوا من عُشِّ الفلسفة ، فوضعوا على الكتاب الشروح والحواشي ، وسلکوا بهذا العلم مسلكاً تنكره اللغة ويستهجئه

البلغاء ، فأغمضوا عن أسرار البلاغة ، وتشبّثوا بالفلسفة ، وحمى بينهم وطيس المناظرة ، حتى أتوا على الدماء الباقي من هذا العلم ، وحتى أضحي وقد انهالت دعائمه ، وتنكرت معالمه :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إِلَى الصِّفَا

أَنِيْسُ ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةِ سَامِرُ

ثم يذكر الشيخ محمد عبده وفضله ، ويقول : « أتى على ذلك حين من الدهر ... حتى أتيح له في هذا العصر إمامٌ تولّى الله تأديبه ... وأوحي إليه صالح العلم ، وأيده بآيات الحق . إمامٌ أرسله الله رحمةً للغة والدين يسوق للناس الرشد في نوابع الكلم ... فلا يلبث أن يقوم أود المائل ، ويجتث من النفوس جذور الباطل فما هو إلا أن سطع فينا نور هذين الكوكبين = (يعني كتاب أسرار البلاغة ، وكتاب دلائل الإعجاز) = حتى استبان لنا سوء ما كنّا نعتسف فيه ، ورحمنا أنفسنا أنصبناها في غير طائل ، ومطايا من العمر أنضيناها في سبيل الباطل ... » .^(١)

* * *

قرأت هذا وأنا في حومة الصراع التي نشبت في نفسي ، بما أحدثه كلام الدكتور بكتابه (في الشعر الجاهلي) وما سمعته منه يومئذ ، فلم أزل أسائل نفسي وأسائل الكبار الذين أدركوا ذلك الزمان قبل أن أولد ، فعلمت منهم أن ما قاله الشيخان إنما هو ترديد لما كان يقوله الشيخ محمد عبده في دروسه ومجالسه ، في ذم الكتب التي كان طلبة العلم في الأزهر يدرسونها ، فتلقفوا عنه هذا الطعن بالتسليم دون فحصر أو نظير . وهذه الخصلة وحدها ليست من خصال أهل العلم ، إنما هي تشدق وثرثرة ، كل امرئ قادر على أن يتبجح بها ويتباهى ، وقبل كل شيء ، فهي في حقيقتها صد صريح

(١) اختصار لثرثرة طويلة من مقدمة الشيخ البرقوقي

عن هذه الكتب ، يُورثُ الازدراء ، ويُغرى بالانصراف عما فيها ، ويحْمِلُ على تحقير أصحابها .
وفُتِحَ هذا الباب ولم يُغْلَقْ إلى هذا اليوم .

كان هذا ومُضَّةُ بَرْقٍ في ظلامٍ لَفَنِي فيه كلامُ الدكتور طه . فشغلتُ نفسي فترة في الأمر كيف جاء على لسان هذين الشيخين ؟ ولم ؟ وكنت يومئذ حديث التخرُّج في القسم العلمي في المدرسة الخديوية . فنظرت فيه على هذا الوجه :

أولاً = الشيخ محمد عبده ولد سنة ١٢٦٦هـ ، وتوفي سنة ١٣٢٣هـ ، (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) ، ولماً كان مناصراً لثورة عراقى ، سجنه الإنجليز ثم نَفَوْه وهو في الرابعة والثلاثين من عمره إلى بيروت سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) وبعد ذلك عاد إلى مصر سنة ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) ، ويومئذ ذاع صيته وتحلَّقَ الناس حوله . وبعدئذ أيضاً نشب الخلاف بينه وبين علماء الأزهر واحتدم ، وتطاييرت الكلمات على لسانه في ذمهم وذم كتبهم ، وأظنُّ أن ذلك كان قد بدأ سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩١م) على الأقل ، إلى أن توفي رحمه الله في سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) ، أى نحو أربع عشرة سنة .

ثانياً = الشيخ محمد رشيد رضا ولد سنة ١٢٨٢هـ وتوفي سنة ١٣٥٤هـ (١٨٦٥ - ١٩٣٥م) ، وكانت بينه وبين الشيخ عبده مراسلات قليلة أيام نفيه إلى بيروت ، ثم ترك الشام ونزل مصر سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ، فشهد هذه المعركة بين شيوخ الأزهر والشيخ محمد عبده نحو ثمان سنواتٍ ، وسمع منه ما سمع ، وكتب مقدمة « أسرار البلاغة » ، سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) ، أى بعد مقدمه إلى مصر بخمس سنوات .

مقدمة

ثالثاً = الشيخ عبدالرحمن البرقوقي ، ولد سنة ١٢٩٣هـ وتوفي سنة ١٣٦٣هـ (١٨٧٦ - ١٩٤٤م) ، قرأ في الأزهر على شيخنا سيد بن علي المرصفي ، ولم يتم دراسته في الأزهر ، وكان حين نشبت المعركة بين الشيخ عبده وعلماء الأزهر في السادسة عشرة من عمره ، شاباً نابهاً محباً للآداب ، وكان ممن تحلق حول الشيخ عبده من طلبة الأزهر . فسمع ما سمع من الشيخ حتى توفي سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) ، وكان يومئذ في الثلاثين من عمره . وفي سنة ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) ، طبع كتابه «شرح التلخيص في علوم البلاغة» ، وقرّظه الشيخ عبده في تلك السنة ، ثم توفي الشيخ سنة ١٣٢٣هـ كما مرّ آنفاً ، وضمن التقرير غمراً شديداً في شرح «التلخيص» ، وفيمن يدرّسه من علماء الأزهر فقال :

« شرحه كثير من الناظرين في الفن ، وتعلق الأغلب بلفظه ، ولم ينظروا في الغاية من وضعه ، فصرفوا الوقت فيه ، وفاتهم البلاغة نفسها بجميع مقاصدها . فلا هم يُحَسِّنُونَ إذا كتبوا ، ولا هم يُقَيِّعُونَ إذا خطبوا ، ولا هم يحسنون الاستماع إذا خوطبوا ، كما هو معروف لأنفسهم ، ولكل من يعرفهم» .

فأنت ترى ، فيما أظنّ ، أن ما قاله الشيخان ما هو إلا ترديد لما كان يقوله الشيخ عبده في معركته مع الأزهر ، في ذمّ كتبهم والغضّ منها ، والكلام المكتوب = كما تراه في تقرير «شرح التلخيص» للبرقوقي = غير الكلام الذي كان يدور في المعركة باللسان ، وبالتجريح ، وبالانتقاص ، والصدّ عن شروح «التلخيص» ، وبخاصة حواشي «السعد التفتازاني» الذي انتهت إليه معرفة علوم البلاغة في المشرق . كما قال مترجموه ، وأحسنوا الثناء عليه وعلى ما كتب ،

[انظر مقدمة الشيخ رشيد فيما سلف ، والتعليق عليها]

ولم يقتصر ذم الشيخ عبده على كتب البلاغة وحدها ، بل تناول الطعن الجارح كل الكتب التي كانت تدرس في الأزهر على اختلاف أنواعها ، من بلاغة وفقه ونحو وبقية علوم العربية والدين ، وذاع هذا الطعن ، وتناقلته ألسنة المحيطين به من صغار طلبة الأزهر ، وطلبة المدارس ، وغيرهم من الطوائف ، فكان هذا أول صدع في ثراث الأمة العربية الإسلامية ، وأول دعوة لإسقاط تاريخ طويل من التأليف ، وما كتبه علماء الأمة المتأخرون ، إسقاطاً كاملاً يتداوله الشباب بألسنتهم ، مستقراً في نفوسهم وهم في غضارة الشباب ، لا يطيقون التمييز بين الخطأ والصواب ، وليس عندهم من العلم ما يعينهم على الفصل في المعركة التي دارت بين شيوخ الأزهر والشيخ محمد عبده ، وليس في أيديهم سوى ما قاله الشيخ في التجريح والطعن الذي صددهم صدداً كاملاً أيضاً عن هذه الكتب ، وأورثهم الاستهانة بها - والاستهانة داءً وبيل يطمس الطرق المؤدية إلى العلم والفهم .

كلمات جارحة ، وزلات لسان على حين غضب ، لا يدري الناطق بها ما عواقبها ، وقد قال الشاعر القديم :

جراحات السنان لها التام ولا يلتام ما جرح اللسان

(يلتام : يلتئم) ، وقد كان ما قال الشاعر ، وبقي الجرح يتسع وينزف إلى هذا اليوم .

لم تكذ هذه الجراحات تستشري قليلاً قليلاً ، حتى جاء ما هو أدهى وأعظم بلاء . جاء من رجل نشأ في الأزهر ، بعد أن جاء من الصعيد سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) في الثالثة عشرة من عمره ، وذلك قبل وفاة الشيخ محمد عبده سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) ، فلم يسمع منه شيئاً ، بل سمع

ما كانت تتناقله الألسنة الطاعنة في كُتُب الأزهر باستهانة وبلا مبالاة ، فَوَقَّرت الاستهانة في أعماق نفسه . ولم تستمر دراسته في الأزهر أكثر من أربع سنوات ، ثم فارق الأزهر قبل سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) ، فالتحق بالجامعة المصرية التي كانت قد أنشئت في هذه السنة . كان فتى ذكياً أديباً محباً للظهور والشهرة ، فنال الدكتوراه من «الجامعة المصرية» سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) ، ثم سافر إلى فرنسا وحاز الدكتوراه من السربون سنة ١٣٣٦هـ (١٩١٨م) ، وعاد إلى مصر وأقام بها حتى أنشئت «جامعة فؤاد الأول» (جامعة القاهرة) ، فعُين بها أستاذاً للأدب العربي سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) ، وذلك عند أول إنشاء هذه الجامعة ، وهو يومئذ في السادسة والثلاثين من عمره = ذلك هو أستاذنا وأستاذ جيلنا الدكتور طه حسين .

* * *

كُنَّا طلبةً صغاراً ، قد جاءوا من المدارس الثانوية ، مُفَرَّغِينَ تفريغاً كاملاً من أصول ثقافة أمتهم ، من ماضيهم كُلِّه ، من علومه وآدابه وتاريخه وفنونه ، ومن الثقافة الإسلامية العربية الواضحة في كتب أسلافهم ، لا علم لأحدٍ منهم بهذه الكُتُب . وذلك بفضل نظام المدارس المصرية الذي تَوَلَّى وضعه القسيس المبشر العاقى « دنلوب » ، والذي لا يزال ساري المفعول إلى هذا اليوم ، (سنة ١٩٩١م) .

فُوجئنا جميعاً بالدكتور طه ، وبصوته الجهر ، وبألفاظه العذبة ، وبحسن تعبيره عن مقاصده ، ثم بإنكاره صحة الشعر الجاهلي ، والذي لم يسمع به أكثرنا ، بل جُلُّنا ، وهو يحدثنا عن نظريته فيه ، وأن : « الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، فهي مختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشك في أن مابقي من الشعر الجاهلي

الصحيح قليلٌ جداً ، لا يمثل شيئاً ولا يدلُّ على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي . وأنا أقدر النتائج الخطيرة لهذه النظرية ، ولكنني مع ذلك لا أترددُ في إثباتها وإداعتها ، ولا أضعفُ عن أن أعلن إليك ، وإلى غيرك من القراء ، أن ما تقرأه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنتره ليس من هؤلاء الناس في شيء ، وإنما هو انتحال الرواة ، أو اختلاق الأعراب ، أو صنعة النحاك ، أو تكلف القصّاص ، أو اختراع المفسّرين والمحدّثين والمتكلمين» (في الشعر الجاهلي : ٧)

وانتهى بنا الدكتور طه إلى قوله : « نحن مطمئنون إلى مذهبنا ، مقتنعون بأن الشعرَ الجاهلي ، أو كثرة هذا الشعر الجاهلي ، لا تمثل شيئاً ولا تدل على شيء ، إلّا ما قدّمنا من العبث والكذب والانتحال ... » ، (في الشعر الجاهلي : ١٨٣) . وأعدّ قراءة هذا لكي تحسّ بما فيه من الزهو والغرور .

وأنا وحدي ، من بين جميع زملائي ، تجرّعتُ الغيظَ بحثاً ، ووقعت في ظلام يُفضي إلى ظلام ، وفي حيرةٍ تجرّني إلى حيرةٍ . وهالني هذا الطعنُ الجازمُ في علماء أمتي ، وفي رواتها ، وفي نُحاتها ، وفي مفسّري القرآن ، ورواة الحديث . وبقيتُ أتلدّدُ يميناً وشمالاً زمناً متطاولاً ، حتى جاءت ومضة البرق التي أضاءت لي الطريق ، (انظر ما سلف : ١٩) ، وحملتني على أن أتقصّي قضية طعن الشيخ عبده وتلاميذه في كُتب العلم التي تدرّس في الأزهر ، كما أسلفت آنفاً . فأيقنتُ أن الذي هوّن على الدكتور طه أن يأتي بنظريته في الطعن في الشعر الجاهلي وفي علماء الأمة ، هو ما تأثر به من سماع ما تناقلته ألسنة المحيطين بالشيخ عبده من الطعن في كتب البلاغة وعلمائها الكبار باستهانة وبلا مبالة ، فوقرت هذه الاستهانة في أعماق قلبي ، ونضحت نضحها في كل صفحة من صفحات كتابه : « في الشعر الجاهلي » .

ولم تمض عشر سنوات ، أى فى سنة ١٩٣٥ ، حتى كان الدكتور طه أول من فرع من أثر هذه النظرية فى أبنائه الذين خرّجهم فى الجامعة ، فبدأ ينشر فى جريدة الجهاد سنة ١٩٣٦ مقالات كان محصلها أنه قد رجع رجوعاً كاملاً عن نظريته فى الشعر الجاهلى ، ثم حدّثنى هو نفسه بأنّه قد رجع عن هذه الأقوال ، ولكنه على عادة الأساتذة الكبار فى ذلك الوقت ، يخطئون فى العلن ، ويتبرأون من خطئهم فى السرّ . وسقطت نظرية الشعر الجاهلى وحسب أمرها ، ولكن الاستهانة ظلّت سارية الأثر ، إلى هذا اليوم .

بل بقى من كتابه فى الشعر الجاهلى ، مذهبه الذى دافع عنه فى أول كتابه ، والذى وصفه بقوله : « أما هذا المذهب (يعنى الشك) ، فيقلب العلم القديم رأساً على عقب ، وأخشى إن لم يَمُحْ أكثره ، أن يمحو منه شيئاً كثيراً » ، (فى الشعر الجاهلى : ٣) ، وأن هذا المذهب له نتائج عظيمة جليلة الخطر ، وأنه أقرب إلى الثورة ، وحسبك من أصحابه : « أنهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حقّ لاشكّ فيه ، وليس حظّ هذا المذهب منتبهاً عند هذا الحد ، بل هو يجاوزه إلى حدود أخرى أبعد منه مدى وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون إلى تغيير التاريخ ، أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ » ، (فى الشعر الجاهلى : ٦) ، وهذا كلّ ثرثرة جارفة ، واستطالة وزهو وطقطقة لسان ، لاغير .

ذهبت نظرية الدكتور طه فى الشعر الجاهلى بدداً ، لأنها لم تقم على أساس صحيح من العلم والنظر ، ولم يبق من كتابه إلا شيثان :
الأول : ما طفح به كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، من الاستهزاء والسخرية والاستهانة بعقول القدماء من أسلافنا ، والخطّ من أقدارهم ، والغصّ ممّا خلّفوه من كُتب ومن علم ، ومن حصيلة جهودهم وإخلاصهم

في الثبوت من المعرفة . وهذا كله مُقْضٍ إلى طَرَح هذا الذى تركوه لنا وراء ظهورنا ، وإلى الإغراض عنه بلا تبيين ولا نظير . وهذا هو الداء الوبيل .

الثانى : التحريض السافر ، لشباب مفرغين من أصول ثقافتهم الممتد تاريخها على مدى ثلاثة عشر قرناً ، على العبث بهذه الأصول ، والكذب عليها بحصائد الألسنة التى لاتستمد ببيانها من عقل مستنير يتورع عن الخوض في أمور لايعرفها حق المعرفة . وهذا أيضاً داءً وبيل آخر يُسرّع إسراع النار في هشيم النبت .

وقد اكتسب الدكتور طه «الاستهانة» والاستخفاف مما سمعه من حديث جرى على الألسنة في زمان المعركة بين شيوخ الأزهر والشيخ محمد عبده وتلامذته من بعده . وأما «التحريض» على تغيير التاريخ ، وما اتفق الناس على أنه تاريخ ، ثم ما دعا إليه من مذهب يؤدي إلى أن يتقلب العلم القديم رأساً على عقب ، وأن يُمحى من هذا العلم القديم أكثره ، أو أن يحى منه شيء كثير = فهذا هو تجديد الدكتور طه الذى دعانا نحن الصغار إليه . ومرة أخرى أقول :

جراحات السنن لها النِثَامُ ولايَلْتَأُمُ ما جَرَحَ اللسانُ

* * *

إنما قصصتُ هذا التاريخ الطويل ، لأنه تاريخٌ لداء «الاستهانة وقلة المبالاة» ، الذى سرى في الناس ، ولأنه يكشف لنا بوضوح أسباب فساد حياتنا الأدبية التى نعيشها اليوم . وهى حياةٌ فاسدة ، لأن أساتذتنا الكبار استهانوا بما يقولون ، وتركوا ألبستهم تطول وترعى في مَرْتَعٍ وخيم . واستهانتهم هذه لم تقتصر جنائثها على العلم أو الأدب ، أو التاريخ ، أو الدين ، بل جنت أيضاً على الحياة السياسية التى جاءت بعد ثورة مصر سنة ١٩١٩ ، بل استشرت أيضاً حتى جنت على ما هو أعظم ، جنت على

عامة الناس في حياتهم اليومية ، وأعمالهم التي يزاولونها بأيديهم وعقولهم ليكتسبوا بها رِزْقَ أيامهم ، وقُوتَ أنفسهم وقُوتَ عيالهم . كانت الاستهانة شرارة خفية تحت الرماد ، وإذا بها اليوم نار ساطعة يستطير لهيها يميناً وشمالاً ، وصدق الشاعر الذي يقول :

* وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْعَرِ الشَّرَرِ *

* * *

آه ! لقد مضى على الأمة العربية الإسلامية نحو من ثلاثة عشر قرناً ، لم نسمع في خلالها دعوة تحرضُ طلبة العلم على إسقاط كُتُبِ برُمَتها من حسابهم ، وتحثهم على رفضها وترك النظر فيها . ولذلك قلتُ آنفاً : إن الذي جرى على لسان الشيخ محمد عبده (في أوائل القرن الرابع عشر) في حركته مع شيوخ الأزهر ، طلباً لإصلاح التعليم في الأزهر ، كان أوّل صدع في تراث الأمة العربية الإسلامية . ثم تلقف كلامه تلامذته فردّوه ترديداً متواصلاً ، وجاء ذلك بيننا فيما كتبه الشيخ رشيد رضا والشيخ البرقوقي في شأن الكتب التي كانت تدرّس في الأزهر في علم البلاغة ، كالحواشي التي كتبها إمام عصره في البلاغة ، السعد التفتازاني في أواخر القرن الثامن (٧١٢ - ٧٩١هـ) ، على «تلخيص المفتاح للسكاكي» للخطيب القزويني من أئمة علماء البلاغة في أوائل القرن الثامن (٦٦٦ - ٧٣٩هـ) . وكان ما قالوه جميعاً ، كما رأيت ، يحملُ قدرًا بالغ الشناعة من « الاستهانة » بعقول الماضين من العلماء وأقدارهم . وليت شعري ، ما يقولون إذن في «عروس الأفراح ، شرح تلخيص المفتاح» للبهاء السبكي (٧١٩ - ٧٩٣) ، وفي ابن يعقوب المغربي في « مواهب الفتاح ، في شرح تلخيص المفتاح » (...) ، وفي حاشية الدسوقي على شرح السعد (... - ١٢٣٠هـ) !!

لقد كانت هذه الكتب جميعاً مُنذ السكاكيّ إلى الدسوقي ، تععيداً

لبعض ما كتبه عبدالقاهر في كتابيه في البلاغة ، فهو أول من أسس علم البلاغة تأسيساً بالغ الدقة ، ومن طلب البلاغة منهما وحدهما ، فقد وقع في بحر تتلاطم أمواجه ، راكمه على غرر الفرق . والذي يضمن لراكبه النجاة هم الذين قعدوا قواعد علم البلاغة ، وكتبوا الكتب والحواشي وضمونها درراً لا يعرض عنها إلا جاهل ، ولا يذمها ويحث الناس على الإعراض عنها ، إلا من استهان بالعلم وبالعلماء ، ولا يحصل طالب العلم من ذمهم إلا « الاستهانة » دون العلم .

وكتابا عبدالقاهر : « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » ، أصلان جليان في البلاغة ، لم يسبقهما سابق ممن كتب في البلاغة ، وهما ككتاب « سيبويه » بل أشد صعوبة ، فمن أراد اليوم أن يرد الناس عن كتب المبرد ومن بعده إلى ابن عقيل ، إلى ابن هشام إلى الأشموني ، ويحثهم على استمداد النحو من « سيبويه » وحده ، فقد أغراهم بأن يلقوا بأنفسهم في بحر لجي لا يرى راكمه شاطئاً يأوى إليه ، وما هو إلا العرق لاغير . كتاب « سيبويه » لا يعلم طالب العلم النحو ، إلا إذا مهد له الطريق ابن عقيل وابن هشام والأشموني ، وإلا فقد قذف نفسه في المهالك .

كل من دعا طلاب العلم إلى الإعراض عن الكتب التي قعدت القواعد ، ومحصت الكتب التي تُعدُّ أصلاً في علم لم يسبقهم إلى مثله سابق ، كسيبويه وعبدالقاهر ، وحثهم على الرجوع إلى الأصل وحده ، دون استعانة بمن قعدوا قواعد هذا العلم ، وقتلوه بحثاً وتنقيباً ، فقد استهان بعقول هؤلاء الأئمة العظام الذين خدموا العلم بإخلاص وورع جيلاً بعد جيل ، وعوّد طلبة العلم أن يستبينوا ويستخفوا بالعلم نفسه ، وهذا هو البلاء الماحق لكل فضيلة في طالب العلم ، ويخرجه من حيز التواضع في طلب العلم ، إلى حيز الغرور والتبجح والاستطالة بعلم ليسوا منه في قبيل ولا دبير .

لم تمضِ عشرون سنة على ما ردّده الشيخ رشيد والشيخ البرقوقي من الاستهانة بالعلماء المتأخرين وكتبهم ، حتى جاء الدكتور طه حاملاً كل الاستهانة والاستخفاف بعلوم المتقدمين جملةً واحدة ، وحثّ طلبة صغاراً في الجامعة على أن يأخذوا بمذهبه الجديد ، الذى « يقلب العلم القديم رأساً على عقب » ، والذى « يخشى إن لم يمحُ أكثره ، أن يمحو شيئاً كثيراً منه » و « أن يشكوا فيما كان الناس يرونه يقيناً ، وأن يجحدوا ما أجمع الناس على أنه حقٌّ لاشك فيه ، لا بل أن يجاوزوا هذا الحد إلى حدود أخرى أبعد منه مدى وأعظم أثراً ، فهم قد ينتهون بهذا المذهب إلى تغيير التاريخ ، أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ » (فى الشعر الجاهلى ص : ٦)

وقد كان ما دعا إليه الدكتور طه وأكثر منه ، وفعلت « الاستهانة » فعلها المتأدى في الأجيال الناشئة على يديه ، كما نشأ هو على يدى الشيخ رشيد والبرقوقي ، وإذا بنا نرى اليوم أساتذة ، لا يقفون بجرائهم على السكاكى والسعد التفتازانى ، بل يتعدّون هذا إلى منشاء علم البلاغة نفسه ، فيعلمون اليوم طلبتهم الصغار أن بلاغة عبدالقاهر ما هى إلا عجوز شمطاء ، أو أن الذى يلجأ إلى البلاغة العربية القديمة ، هو كالمريض الذى يلجأ إلى حلاق القرية ليداويه ، معرضاً عن الطبيب الممارس المؤهل لعلاج المرضى !! ورحم الله الشيخ رشيد والشيخ البرقوقي ، فهذا جزاء ما حملاه كلامهما من « الاستهانة » بأقدار العلماء وكتبهم .

بل كانت ثمرة « الاستهانة » أن يقف أستاذ في أيامنا هذه يعلم النحو ، ويقول للطلبة الصغار ، مزهواً بعلمه : كنتُ أحبُّ أن يجلس سيويوه بينكم ليتعلم منى النحو !! وأساتذة آخرون يقولون للصغار من الطلبة : إنما أفسد نحو العربية سيويوه وابن عقيل وابن هشام وأضرابهم بما كتبوا وبما ألفوا !! ويقول أساتذة آخرون : إن الذى أفسد « موسيقى الشعر العربى » ، هو الخليل بن أحمد ومن جاء بعده من علماء « العروض » !!

بل بلغت «الاستهانة» مبلغها في الدين ، بعدما نشأ ما يسمونه بالجماعات الإسلامية ، فيتكلم متكلمهم في القرآن وفي الحديث بألفاظ حفظها عن شيوخه ، لا يدري ما هي ، ولا يرد ، بل يكذب ، أحاديث البخاري ومسلم بأنها من أحاديث الآحاد ، بجرأة وغطرسة !!

بل جاء بعدهم أطفال الجماعات الإسلامية ، فيقول في القرآن والحديث والفقه بما شاء هو ، ويرد ما قاله مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل ، ويقول : نحن رجال وهم رجال !! بل تعدى ذلك إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ نفسه ، فيقول : نحن رجال وهم رجال . أئى بلاء حدث في زماننا هذا ؟ إنما هو وباء « الاستهانة » بكل شيء . وباء نفشى في مصر بل تجاوزها ، ورحم الله أبا العلاء المعرى ، وذكر وباء نزل بمصر وغيرها فقال :

ماخص مصراً وبأً وخدها بل كائن في كل أرض وبأً
(وبأً بالقصر ، هو الوباء بالمد)

انطفأ سراج العلم ، وسراج الخلق ، وبقيت العقول في ظلمات بعضها فوق بعض . أئى نكية نزلت بعلوم هذه الأمة العربية الإسلامية ، على يد الصغار في حقيقتهم ، الكبار في مراتبهم التي أنزلتهم إياها تصارييف الزمان ، فأطلقوا ألسنتهم في موارد أربعة عشر قرناً بالاستهانة والقدح والازدراء ، وغفر الله للشريف الرضى حيث قال دفاعاً عن نفسه ، والدفاع عن علم أمتنا أولى بما قال :

وإن مقام مثلى في الأعادى مقام البدر تنبُّحه الكلاب
رموني بالغيوب ملفقات وقد علموا بأئى لا أعاب
ولم يلاقوا فى عيّا كسوتنى من غيوبهم وعابوا
ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وهو بعباده لطيف خبير ، وهو القادر

مقدمة

على أن يُردَّ من زاعٍ عن الطريق إلى الجادة ، وأن يُعيَّذَه من شرور نفسه
وفلتات لسانه .

تَفْتَةُ مُصْدُور ، ولأبدٍ للمصْدُور أن يَنْفِثَ ، (المصْدُور : الذى يشتكى
وجعاً فى صدره)

بقى بعد هذا الحديث الجالب للغم ، أن أحدثك عن أمرٍ واحدٍ فى
شأن كتاب الإمام عبدالقاهر « أسرار البلاغة »

فإني حين انتهيت إلى عمل فهرس الكتاب وقعتُ فى حيرة ، وجدتُ
أنى لا أستطيع أن أضبط ما فى الكتاب تحت أبواب جامعة ، لأن تفاصيل
ما فيه كانت أوسع من أن تجمعها أبوابٌ محدَّدة كسائر كتب البلاغة التى
جاءت من بعده . فانتهيت أخيراً إلى أن أجعل الفهرسَ مفصلاً تفصيلاً كاملاً
بألفاظ الإمام نفسه . فتحت كُلَّ فقرةٍ دُرَّرَ نقيصةٌ تضيع إذا عقدتُ له أبواباً
جامعة . فرأيتُ أن أجعلها مفصَّلةً ، لكى يستطيع قارئ الكتاب أن يعرف
حُبَّاه ، راجياً أن لا ينفَلَّتْ منه شىءٌ بالاختصار . وهذا مُعِينٌ لطالب العلم
الجادِّ فى عمله ، أن يستخرجَ منه مافات علماء البلاغة الذين قعدوا قواعدَ
هذا العلم ، جزاهم الله أحسن الجزاء

ربِّ اغفر لى وارحمنى وتبْ عَلىَّ إنك أنت التواب الرحيم .

مصر الجديدة

أبوفهم
محمود محمد شاكر

٣ شارع الشيخ حسين المرقفى

السبت : ١٦ جمادى الأولى سنة ١٤١٢هـ

٢٣ نوفمبر سنة ١٩٩١م